

## من مشكلاتنا الاجتماعية :

### الهجرة من القرية إلى المدينة

الأستاذ يحيى هويدى

لا بد أن يكون قد استرعى انتباهنا جميعا هؤلاء القرويون الذين امتلأت بهم شوارع العاصمة ، وازدحمت بهم أحيائها . ولا بد للتأمل أن يكون قد لاحظ : فضلا عن هذا ، أن هجرة هؤلاء القرويين من القرية إلى المدينة أصبحت في ازدياد مضطرد ، ازدياد لا يسع الباحث في الشؤون الاجتماعية معه إلا أن يعيد إلتفاتة ، ويستقصى أسبابه ، وينقب عن نتائجها ويقدم طرق علاجه .

وأحب أن أشير في أول مقالى إلى أن هذه الظاهرة ، ظاهرة الهجرة من القرية إلى المدينة Urban migration ، ظاهرة عامة : ليست قاصرة على مصر وحدها ، بل وليست قاصرة على العصور الحديثة حُسب . فإن هجرة الشعوب من القرية إلى المدينة بدأت منذ بدء الحضارات . ذلك أننا نعلم أن الحضارات قد نشأت : أول ما نشأت : على ضفاف الأنهار القديمة كالنيل والدجلة والفرات وأنهار الصين والهند . وأقبل الناس على هذه البقاع الخصبة يلتمسون فيها قوتهم وأمنهم . ولكن لم تنشأ مدن بمعنى الكلمة في هذه المناطق الزراعية . فاحتفظت بطابعها القروى حتى عصورنا الحديثة . أما المدن في العصور القديمة فلم تنشأ إلا من أجل مركزها الحربى أو الدينى حُسب : مركزها الحربى لأن وقتها كان أكثر خصوبة من غيرها مما جعل أفراد القرى المحيطة يلجأون إليها في حالة إغارة الأعداء عليهم ، ومركزها الدينى لأن قداماء اليونان مثلا كان من عادتهم أن يحتفظوا برئيسهم الدينى في مكان حصين هو المدينة ، لإبعاده عن كل مكروه ولحمايته من كل خطر . وكان قداماء اليونان يهجرون إلى هذه المدينة في مواسم الحج ليجيوا فيها رئيسهم الدينى وليقيموا فيها المراسم والحفلات .

يتضح من هذا أن القرويين ، منذ بدء الحضارة ، كانوا يلجأون إلى المدن إما لحمايتهم من الأعداء نظرا لموقعها الحصين وإما لإحياء المشاعر الدينية . أعنى أنهم ، حتى في تلك العصور الغابرة ، كانت هناك هجرة من القرية إلى المدينة . ولكن من اليسير أن نلاحظ أن هذه الهجرة لم تكن هجرة بمعنى الكلمة : فقد نشأت تحت تأثير ضرورة حربية أو دينية دون أن يكون المهاجر فيها مدفوعا إليها من تلقاء نفسه ، ومن ناحية أخرى فقد كانت هجرة مؤقتة وليست بمستديمة . أعنى أن القرويين الذين كانوا يترحون إلى المدينة في تلك العصور سرعان ما كانوا يرتدون إلى قراهم بمجرد انتهاء إغارة العدو ، أو انقضاء الموسم الدينى . وما كان ل هؤلاء القرويين أن يستمروا في المدينة وهم يعلمون أن مورد غذائهم الوحيد لا يوجد إلا في القرية ، عن طريق الزراعة . وذلك مصداقا لما قلناه قبل ذلك من أن الحضارات كانت في نشأتها زراعية ، ووجدت أول ما وجدت ، على ضفاف الأنهار .

في الهجرة من القرية إلى المدينة في العصور الحديثة فمختلفة عنها في العصور القديمة من ناحيتين : الأولى أن هجرة القرويين في العصور الحديثة إلى المدينة هجرة مستديمة وليست مؤقتة بإغارة عدو أو بحج ديني والثانية أن الدوافع إلى هذه الهجرة في العصور الحديثة مختلفة تمام الاختلاف عن الدوافع إليها في العصور القديمة ويدور أغلبها حول الدافع الاقتصادي كما سنرى ذلك الآن .

### أسباب هذه الهجرة :

١ - النمو الاقتصادي : ويشمل النمو الصناعي والتجاري . قلنا إن نشأة المدينة في العصور القديمة لم تكن إلا لضرورة حربية أو دينية . وإن هجرة القرويين إليها كانت تبعاً لذلك مؤقتة . أما نشأة المدينة في العصور الحديثة فيرجع إلى نموها الصناعي أو التجاري أو كليهما معاً . وكان من أثر هذا النمو الاقتصادي بنوعيه أن شرع أصحاب الأموال في بناء المصانع والشركات ، الأمر الذي تطلب بدوره الأيدي العاملة . فتهاوت القرويون على المصانع والشركات ، وهجروا القرية إلى المدينة . وقد استهواهم ارتفاع الأجور التي كانوا يتقاضونها في المصانع ، واملهم أيضاً بأن الصناعة مستمرة على جميع فصول السنة ، وهذا لا ينسب بالنسبة إلى الزراعة . وقد ارتبط التقدم الصناعي في المدينة بالنمو التجاري منذ البدء . وذلك لأن المصانع تنتج البضائع . وإذا ما وجدت البضائع كان لا بد من قيام الأسواق لتصرفها . وهذا مما ضاعف حاجة أصحاب العمل إلى الأيدي العاملة وزاد بذلك في أجورهم مما أدى بدوره إلى هجرة عدد أكبر من القرويين إلى المدينة .

٢ - تغير طرق الزراعة : قلنا إن احتياج المدينة للأيدي العاملة قد ازداد بمحو التجارة والصناعة فيها . وعلى العكس من ذلك قلت حاجة القرية إلى الأيدي العاملة . فاختراع الآلات الحديثة في الزراعة قد مكن العامل الواحد من القيام بالعمل الذي كان يقوم به فيما مضى خمسة أو عشرة عمال . وهذا أدى بالكثير من العمال الزراعيين إلى التمكن في الهجرة من القرية إلى المدينة ، ما دام لم يعد هناك محل لأقامتهم .

٣ - إغراء المدينة : وإفقار القرية من الأيدي العاملة لا يرجع إلى تلك الأسباب الاقتصادية فحسب ، بل يرجع أيضاً إلى أسباب اجتماعية سيكولوجية أهم من السابقة . فسرطان ما يمل الشاب القروي الحياة الجامدة الرتيبة التي يجيها في القرية ، وبشيق بها ، ويتطلع إلى المدينة بأنوارها الوضائة ، وبوجودها المليحة ، وبدور ملاحيا التي تنص بها شوارعها . إذن فلنعدم على هذه التجربة الجديدة ، وليتمثل إلى المدينة : وهو على ثقة من أنه سيستمرى الحياة هناك وسيجد فيها لذة لا تعد لها لذة .

تلك هي الأسباب العامة لهجرة القرويين إلى المدينة في العصور الحديثة ، لنبحث  
بعد ذلك في مدى تمتشى هذه الدوافع العامة مع حالتنا في مصر ، وهل تصدق على هجرة  
القرويين المصريين من القرى في الوجهين البحري والقبلي إلى القاهرة واللا-كندرية والمحلة  
الكبرى مثلا أم لا .

١ - ليس من شك في أن هذه المدن قد شاهدت نهضة صناعية لم تكن فيها من قبل .  
لا مراء أما نهضة متواضعة ، ولكنها نهضة على كل حال أوجدت مياديا للعمل الكبير من  
الأيدي المصرية وشجعت على الهجرة من القرية إلى المدينة ، ولكننا نلاحظ من ناحية  
أخرى أن أجور العمل و المصانع التي نشأت في هذه المدن المصرية ليست بمغرية على  
الإطلاق ، بل هي كيفية لجذب لإقامة الأود ، وإذا كان القروي يعلم هذا مقدما قبل  
هجرته إلى المدينة ويماجر على الرغم من ذلك ، فإن هذا يدعونا إلى التفكير في سبب آخر دفع  
بهؤلاء القرويين إلى الهجرة إلى المدينة للعمل بها ، فضلا عن هذا فقد ذكرنا سابقا عند  
الحديث عن الأسباب العامة للهجرة من القرية إلى المدينة ما شاهدناه القرويون في البلاد  
الأخرى من أن الصناعة تمتاز عن الزراعة بأنها مستديمة على جميع فصول السنة ، وهذا مما  
شجعهم على الهجرة إلى المدينة فضلا عن إغراء أحور العمل هناك ، ولكن هذا ليس موجودا  
بالنسبة إلى النظر المصري ، فالزراعة في بلادنا كالصناعة تماما زراعة دائمة في الوجه البحري  
على الأقر ، وعلى ذلك فنرفض هذا السبب الأول من الأسباب الدافعة لهجرة القرويين إلى  
المدينة باعتباره غير صالح لتفسير هجرة القرويين المصريين إلى المدينة .

٢ - ذكرنا في الحديث عن الأسباب العامة للهجرة من القرية إلى المدينة شدة  
الحاجة إلى الأيدي العاملة في المدن ، نظرا لتطورها الصناعي والتجاري ، مع قلة الريف ،  
نظرا لتغير طرق الزراعة هناك ، ولأن ما يقوم به العامل في القرية الآن بمساعدة الآلات  
الزراعية الحديثة ، كان يقوم به خمسة أو عشرة عمال فيما مضى . فهل شاهدت مصر هذا  
التغير ؟ كلا فإن الآلات التي تستخدم في الزراعة الآن هي نفس الآلات التي كان  
يستخدمها قدماء المصريين ، ومن أجل هذا ظلت القرية في حاجة إلى نفس العدد من  
الأيدي العاملة الذي كانت تحتاج إليه فيما مضى ، وإذا عرفنا أن كثيرا من القرويين المصريين  
قد هجر القرية إلى المدينة فلا بد أن تكون النتيجة الطبيعية لهذا هي النقص الطاهر في الأيدي  
العاملة في القرية ، وهذا طبيعي لأن نزوح هؤلاء القرويين إلى المدينة لم يتبع بتغير من  
الآلات الزراعية ، لأمر الذي يخفف من شدة احتياج الزراعة إلى الأيدي العاملة ، وهذا  
يقصرنا - إلى حد كبير - ذلك النقص في الأيدي العاملة الذي يشكو منه أصحاب الأراضي  
من الشوى ، وليس من شك في أنه قد صاحب هذا النقص في الأيدي الزراعية زيادة  
غير محتملة في أجورهم مما ضاعف شكوى الملاك الزراعيين .

ليس هذا السبب أيضا بالنسب الصحيح الذى يفسر اما هجرة القرويين المصريين إلى المدينة ، فإذا كان تغير الأساليب الزراعية فى البلاد الأخرى قد أدى إلى توفير عدد كبير من العمال الزراعيين مما حملهم على الهجرة من القرية إلى المدينة ، فإن شيئا من هذا لم يحدث بالنسبة إلى القطر المصرى الذى لم يشاهد هذا التغير فى الأساليب الزراعية .

٣ - اتفينا من هذا إلى أنه لا السبب الأول ولا السبب الثانى من الأسباب الدافعة إلى الهجرة من القرية إلى المدينة بالأسباب الصحيحة التى تفسر لنا هذه الهجرة فى القطر المصرى . نرى رأينا من ناحية أن أجور العمال هنا ليست بمغزية كما هى الحال فى البلاد الأخرى ، ومن ناحية أخرى رأينا أنه لم يحدث تغيير فى الآلات الزراعية مما لم يؤد إلى الاستفناء عن عدد من الأيدي الزراعية فى القرية . ومع كل هذا فنحن نشاهد هذه الهجرة من القرية إلى المدينة تزداد وتطرد وبتدنا مما لا يترك مجالا للشك فى وجودها . إذن لنبحث عن الدافع الحقيق لها فى السبب الثالث الذى أتينا به ، وهو السبب السيكولوجى فالمدينة قد سهوت القروى المصرى فى العصر الحديث ، ورأى أن حياته فى المدينة ستكون أرغد من حياته فى القرية ، فهاجر إلى المدينة . والحق أن القروى المصرى فى هذا معذور كل العذر . فما الذى عساه أن يجده هذا القروى فى القرية المصرية ؟ ! دار شاركه فيها الحيوان حتى اختلطت حياته بحياته ، لا يجد فيها ما يأنس إليه ، لم يراع فى بنائها أية قاعدة من القواعد الصحية . ثم من ورائه قرية لا يعرف أين يمضى وقت فراغه فيها ، ولا يعرف أين يعالج نفسه بها إذا ألم به أو بوجهه أو بأولاده المرضى ، ولا يعرف أين يعلم أولاده فيها إذا ما كبروا .

لهذا السبب وحده : استهواء المدينة من ناحية ، وعدم وجود أى مشجع للبقاء فى القرية من ناحية أخرى ، ترجع هجرة القرويين المصريين إلى المدينة فى العصر الحديث .

### نتائج هذه الهجرة :

ترتب على الهجرة من القرية إلى المدينة فى مصر نتائج عدة نستطيع أن نقسمها إلى قسمين : نتائج فى القرية المهاجرة منها ، ونتائج أخرى فى المدينة المهاجرة إليها .

أ. نتائج هذه الهجرة فى القرية فقد أشرنا إليها قبل ذلك وأهمها : نقص الأيدي الزراعية فى القرية ، وارتفاع أجور العمال الزراعيين إرتفاعا ظاهرا يجعل أصحاب الأراضى تحت رحمة هؤلاء العمال . وهذا شئ به خطره .

أ. نتائج هذه الهجرة فى المدينة ، فقد ترتب على الهجرة أن ازدحمت المدن الكبيرة - وخاصة القاهرة والاسكندرية - بالسكان إزدحاما نشاهد أثره كلما لأن وترتب على هذا الازدحام قيام عدة مشاكل أهمها : إنتشار الأمراض المعدية خصوصا فى لأحياء البلدة

التي يقصد إليها المهاجرون غنبا . ثم كانت النتيجة لهذا الازدحام أيضا أن تعقدت مشكلة المواصلاات تعقيدا ضقتنا به ذرعا ، وتلمسنا الحلول له دون جدوى . واتسعت تبعاً لذلك أعمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية في كنف الشوارع ورشها ... الخ . ثم إن للمدينة مشكلتها العامة أو الثقافية أيضا . ولكن المشكلة هنا ناشئة - على عكس ما نجد في القرية - من كثرة إقبال الأطفال على التعليم خصوصا في مرحاته الأولى لا من قلته كما هي الحال في القرية . ونتج أيضا عن إقبال المدنين على وسائل التسلية من دور المسارح والسينما كل ليلة أن أصبح من الضروري إقامة هذه الأماكن في بتاع صحية بحيث يتسع لعدد كبير . إلى غير ذلك من المشاكل التي ذكرنا بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

### طرق الإصلاح :

نحن إذن أمام مشكلة من أعقد مشكلتنا الاجتماعية وهي مشكلة الهجرة من القرية إلى المدينة . فلو أن هذه الهجرة استمرت على ما هي عليه الآن من اضطراب مخيف ، فسواجه جميع المشاكل التي ذكرت بعضها منها الآن ، والتي تستحق كل منها أفراد بحث خاص بها مما يدل على خطورتها وحيويتها . وقد رأينا أن الدافع الحقيقي لهذه الهجرة هو افتقار القرية إلى ما يشجع على الإقامة فيها . فليس أمام الحكومة والحال هذه إلا طريق واحدة لحل هذه المشكلة بفروعها المتعددة . وهذه الطريقة ليست جديدة على مسامع القراء بل إن المصلحين قد نادوا بها آلاف المرات ، وأعنى بها : عدم ادخار أي وسع في النروض بالقرية المصيرية نهضة لا يفكر القروي إزاءها في مغادرتها إلى المدينة . فتوجه العناية إلى مسكن الفلاح وغذائه وتنشأ المستشفيات لعلاجه ، وتصلح المدارس الريفية إصلاحا يحقق الغرض منها ، وتزود القرى بالمراكز الاجتماعية والزراعية التي ثبت نجاحها . ويجب ألا ينضل القاعون بالإصلاح أيضا إيجاد الوسائل لتحقيق التسلية البريئة المفيدة في القرية ليعرف القروي كيف يمضي وقت فراغه .

وإذا كانت الحكومة قد أخذت في تنفيذ هذا المشروع في بعض القرى ، فما زلنا نطلب منها المزيد ، وما زال المشروع في حاجة إلى تعميم في جميع أنحاء القطر . ففي تعميمه حل لمشكلات اجتماعية كثيرة ، من أهمها مشكلة الهجرة من القرية إلى المدينة .

يحيى هويدى  
المدرس بالمدارس الثانوية